النغم الضـــائع !

بقلم F. MATANIA

[قصة من أدب الحياة الواقعي ، طغت فيها التقاليد على قلب فنان عبقري]

للأديب حسين محمود البشبيشي

في يوم من أيام عام ١٧١٧م أضاءته شمس الجنوب اللامعة الباسمة ، ترنحت عربة رثة متربة خلال مدخل كابيونيا أحد مداخل نابلي ، وقد جلس في داخلها غلام في عامه الثامن ، تحمل الرحلة المرهقة القاسية وحيداً من قرية جيزى إلى نابلي . وما كان معه من سند غير بعض كتب التوصية لنفر من البيوتات النابولية الرفيعة .

كان هذا الغلام هو « جيامباتيستا بورجوليزى »

ولما نزل من العربة تعباً غريباً تائهاً في حياة العاصمة الدوارة الصاخبة ، وضعه جنود الحراسة في عربة عامة ، وأرسلوا به إلى أحد المناوين التي على كتبه .

تصور طفلاً صغيراً ضعيفاً كصاحبنا خرج لأول مرة من مجتمعه الصغير الحقير في قرية جيزى بالقرب من أنكونا حيث تواتمت الأزقة المهجورة وملالة الوجود ، وتمازجت حقارة الفكرة وشفافية الحياة ، إلى نابلي هذه المدينة الرحبة الصاخبة الماجنة العابثة الغارقة في النور وشهوته ، الضارية في كل فن وكل غريب . . .

تصوره وقد تعلق الأطفال حول العربة كل يريد الركوب ، والحوانيت تبين وتغيب ، والمطاعم تقدم صحاف المكرونة المعهودة ليلاً ونهاراً في ضجة ومرح ، وهتاف وفرح ، والجمهور التائه كسرب من الحمام ، الصاخب كقطيع من الأغنام ، يزيد في صخبه ، ويمعن في دورانه ، والأسواق متنوعة : أسواق للسمك وأسواق للفاكهة وأسواق للخضر تموج في ضجتها وشدتها ، وتضطرب في تقلبها وحركتها ، كل ذلك بين أصوات للباعة ترتفع جشاء جوفاء لا انسجام فيها ولا اتزان . . .

مسكين « جيامباتيستا » ! هل كان في حيرته يدور في خلده ، إذ ذاك ، أن عبقريته ستتوجه يوماً ما في هذه المدينة الدوارة المضطربة بوسائل الفرح ، المتقلبة في مظاهر الانطلاق الروحي والحسي ! !

لقد ولد في أسرة هي أغنى في عقليتها وتعليمها منها في ماليتها وتقاليدها ، وأعظم في ميولها وأحاسيسها منها في أصلها وأعراقها .

ورأت فيه عائلته عن حق ميلاً إلى النبوغ الموسيقي ، يتألق أنغاماً روحية تشعها روحه الباسمة وحركاته الراقبة ولفتاته الأنيقة . فأرسلته إلى « نابلي » ليأخذ هناك من نبعها الدافق ، ويتغيش فيما بعد منها . ودخل بالتوصية والالتفات والرعاية (المعهد الموسيقي العظيم) حيث تعلم العزف على القيثارة تحت إرشاد الفنان القديم « ديماتيس » ، فكان له من طبعه الفني القادر ، وزوح أستاذه الساحر ، أكبر باعث ألهب فيه حيوية الفن وأقباسه . فصقل روحه بكل جديد من الصور ، وخلع على قلبه كل فاتن من الأحاسيس ، وإن ما كان يتوقعه هذا الفنان « ديماتيس » لتلميذه المتألق المتوثب من مجد دفعه إلى أن أثر على الشاعر العظيم « جريكو » الذي اهتم بهذه العبقرية المتألقة المتطلقة التي لم تزل بعد في أكمامها .

ووجد « برجوليزى » ككل فنان حديث يشعر في قرارة نفسه بحيوية تريد أن تفيض ، وأقباس تتطلع للظهور ، وألوان تتواثب لتتنسم الحياة ؛ وجد فناننا « برجوليزى » من القيود الموسيقية الرثة أغلالاً تجعل أجنحة فنه تحلق في سماء محدودة وأجواء مقيدة ، وآفاق لا تشبع الرغبة الجامحة والنزعة الطافرة . وضاق صبره بتلك القيود ولكنه أكره نفسه عليها ! حتى غادر مع أستاذه المعهد العظيم في عام ١٧٢٦ ليجني حراً طليقاً ما يريده

من أزاهير ، فتفتحت أمامه مبكرة ، وتحققت أمانيه ؛ فلحن على حداثته قطعاً من الأوبرا ونشيداً رائعاً فاتناً ساحراً هو (سان جيجليلمو) مما كان له مكانة سامية وشهرة عظيمة حتى فى هذا الوسط الفنى

ورحبت به العائلات الرفيعة التى كان عطفها ورعايتها قبلة فنانى القرن الثامن عشر

ولا عجب أن رحبت به والتفتت إليه ، وهامت بألحانه الساحرة ، وما تريد سوى أن يلتف حولها الفنانون . أما هو فقد جلت أنواره الجديدة الأنيقة من ملاحه الدقيقة الوسيمة ، وقد عكس وجهه الوضىء الفنى روحه الشاعرة الفتية العامرة بالحساسية !

ووجد ثمرة الإلهام أمامه ناضجة

فقد كان ملك نابلى المتحمس لتشجيع فنانى عصره ملاذاً للعلماء والمهندسين والرسامين والموسيقيين ، وأصبحت نابلى إذ ذاك فى أوج مجدها الفنى ، إذ كانت مركزاً منفرداً للمدنية ، انبثق منها إلهام حى سام متألق لجامياتيسنا

لقد كانت المدينة غنية بفنانيها حقاً . لقد انطفأت شعلة حياة (كوريللى)[1] و (وانى)[2] ولكن الجمرة التى تركاها تأججت من جديد عند ما نفخ فيها سحر (سكارلاتى)[3] ولما قضى هذا الفنان أيضاً لم يكن إلا لفنان قادر سامى العبقرية ، متوقد الروح ، بعيد مدى الآمال ، أن يحفظ عظمتها وينهض بها

فكان برجوليزى فناناً ولم يزل يعد فى العشرين وارثاً ملهماً فناً لهذا الإرث السامى من الفن العظيم . ما أسعده وما أتم نعمة الفن عليه ! لقد بلغ المجد الذى تطلع إليه . لقد سطع عليه القبس الروحى الذى طالما عناه . لقد أصبح الفنان القادر الساحر

ثم خفق فؤاده يوماً ما شديداً عنيفاً عند ما دعى إلى بيت « سيبتللى » النبيل الكبير

ثم خفق فؤاده مرة أخرى ، ولكنه كان فى هذه المرة أشد خفقاناً ، حينما انتهت مراسيم التقديم ، ووجد نفسه منحنياً أمام غيداء فاتنة . لقد تنازلت ابنة أكبر البيوتات الناپولية ارستقراطية عن كبرياء عائلتها ، رائعةً دقيقةً ساحرة ، تلك هي ماريا سيبتللى التى نظرت إلى الشاب الفنان بورجليزى ، وألهبت شرارة حبها نار الوجد فى حناياه ! . . . وسواء أكان ذلك لفتنة فيه أم لسحر فى موسيقاه فقد باحت بسر الجوى أعين لطاف فجاوبتها عيون ! وصفق قلب فأسرع إليه قلب . . . وهكذا فاض روح الحب من النفس الجميلة والنفس الفنانة

ولكن وا أسفاه ! لم يكن للقصيدة الأبدية من تمام . لقد كانا فى ميعة الشباب وفتنته ، يتدفق فيهما الشعور بروح الجمال ، وتفيض أعينهما إحساساً به ، كما كان هناك على آخر ما يصل إليه البصر من نافذة القصر حيث يتصاعد عبير البرتقال قبور ، ترفع نصبها فى جنون تحت شمس الظهر المرهقة الحارة . أجل لقد كانا فى ميعة الشباب ، ولكن كان هنالك قبور بالقرب من عش غرامهما !

فلا عجب أن دار قدرهما قوياً قاهراً فعصف بهما عصفاً

تناثرت هنا وهناك الأحاديث ! وعرى أرستقراطيو القوم وجوم ودهش . يا عجبا ! ابن الشعب ذلك الحقير ، يتطلع إلى أن يختلط دمه الأحمر الشديد الحمرة بدم أسرة سيبتللى الأزرق الشديد الزرقة ! لتكن عبقريته ما هى ، ليكن قدره ما يكون ، ليكن مستقبله ما سيكون ، ليكن كل شىء

لقد كانوا حمقى ! وما كانوا غير ذلك . فإن من اتحاد الأحمر والأزرق يتكون ذلك اللون البنفسجى الرائع الذى يعلوهما ! تلك هى السماء

ولقد كانت الفكرة ، بل التفكير فيها أمراً حراماً . . . ابن الشعب يتطلع إلى بنت البيوتات الرفيعة !

ثار أهلها كل الثورة ، وحقدوا على الفنان كل الحقد ، ورموا به كل التبرم . وأما أشياعهم من ذوى التقاليد والأشراف

(١) و (٢) من أعلام الموسيقى فى هذا العصر

(٣) وارث الفن بعدهما وسرعان ما أفل نجمه

ولهم فتيات قد يتطلع إلى إحداهن يوماً ما فنان من أبناء الشعب فقد شاركوهم الأمر ، وتنكروا لفنانا برجوليزى

وهكذا تعبث الشهوات الزائلة بجلال الفن، وتعبث الأغراض الدنيئة بجلال الحب ، وتفسد التقاليد العتيقة انسجام روحين ؛ فما أحقر الإنسان إذا انطلقت فيه نوازع النفس الترابية وغطت على بصره ، فظن أن الحياة مظاهر وتقاليد ؛ وما كانت لتكون كذلك والزهر يعانقه الشوك ويقاسمه أغصان دوحته !

أوصدت الأبواب السرجية ، وحبست الوجوه الباسمة ، وولت الأقدام المقبلة ، وأغلقت ... وأغلقت تلك الخميلة التي طالما عزف فيها لماريا ، وألهمته فيها ماريا

وحجبت عن نظراته الوالهة ابنة أسرة سبينللى

ولم يك يصل إليها إلا على جناحي أنشودة خالدة ، وفي ثنايا نسمة عابرة ، وبين ألفاف أمنية مستعرة . وتقلت به الحياة وتقل بها فانغمس في ألحانه الباكية ، وترانيمه الحزينة ، عساها أن تكون له عن دنياه سلوى ، كما هي عن جواه

وتدفقت أمامه الشهرة الفارغة الجوفاء . وسجدت ناپولى لعبقريته حين قدّم لها في عام ١٧٣٠ قطعته الخالدة بعد نجاتها بأعجوبة من زلزال مروع . ولقد كانت قطعته هذه فريدة حقاً في نغماتها ، وجيدة حقاً في ألحانها ، فذة حقاً في معانيها ، منقطعة حقاً في روعتها . ولقد أدرّت عليه كل ما ابتغاه في فجر أيامه ، وتمناه في متنفّس عمره . أدرت عليه كل شيء ليضعه تحت قدمي ماريا ، ماريا الفاتنة ، ماريا ملهمته الفن الساحر القادر . ولكنها قدماها كانتا مغلولتين بغل من حديد التقاليد

لقد كان محرماً عليها هناك في سجنها الذهبي حتى النطق باسم برجوليزى . فماتت بسمتها المرحة على شفتيها ، وانطفأت شعلة في عينيها كانت متألقة باسمة . وجاءها إخوتها الثلاثة يوماً ، وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ ، وتطاير شرر التقاليد من أعينهم ، وأجهر بوق الأرستقراطية أصواتهم ، فتدافعوا إلى خدرها ، وهددوها وسيوفهم مشروعة بأنها إن لم تتخذ لها بعلاً كفئا لها استقر السيف في قلب هذا الموسيقي الحقير ! فدافعتهم بدورها ولوحت لهم بالقانون منتقماً لحبيبها . فضحكوا ؛ فهم حماة الشرف السبينللى ؛ ولم تلك ليد أن تمتد إليهم إذ ذاك لا أن تحميهم .

لقد كان لهم أن يضحكوا ؛ فلم يك قولهم إلا حقاً ، فما ناپلى إذ ذاك إلا مدينة الأشراف ؛ ولقد كانوا هم سادة الأشراف ! !

ومرت أيام ومضت ليال وجاء إخوتها برجل من أسرة كرافا أثقلته حليه ، وجللته عظمته ، فأخذت رأسه الفارغ ، وكست روحه العارية

لقد كان غنياً أرستقراطياً لا شبهة في ذلك ، جاء به إخوتها ترضى به زوجاً ؛ ولكن لم تكن ماريا لتفتنها الثروة أو تأخذها الأبهة ، وما كانت لتريد رجلاً أياً كان ... لقد كانت تريد شيئاً غير هذا ! شيئاً أجمل من هذا . فخرج الكرافي بوجهه المصقول ، وجواهره اللامعة ، وتقاليده الرائعة ، وانحنى له إخوتها مودعين وقد وضع يده في جيبه يتحسس خاتمه الذي لم يقدر له بعد أن يوضع في مكانه

وأمضت ماريا برفضها الكرافي أمراً بالقضاء على برجوليزى . ولم تلك هناك إلا طريقة واحدة لنقضه . لم يك هناك إلا أن تهب نفسها لله !

فوافق إخوتها . ولأمر ما قرروا أن يرأس برجوليزى العازفين في حفل ترهبها ! يا عجباً ! برجوليزى يقدم قلبه لله !

وفي الحادي عشر من مارس عام ١٧٣٤ في كنيسة سانتاشيرا رأس برجوليزى العازفين وبدأ الحفل فلوح بعصاه يفتتح قبر قلبه فكان لنقراته على حامل الموسيقى صدى ، كأنما هو يؤذن برفع الستار عن إحدى المآسي

ورفع الستار عن مأساة مروعة : عذراء تترهب مقدمة شبابها ، جمالها ، حياتها ، قلبها ، إلى نسيج حسن لا يرقه ولا يلطفه إلا الإيمان بالله

مأساة أعمق من أن تصل إليها الألفاظ والجمل . لقد كان الرهبان يصيحون : «مرحباً بعروس البيعة» ، ورنت أصواتهم في كل أذن سمعتهم . أما أذن العروس ، وأما أذن رئيس العازفين فقد سمعتا ماريا كل نغمة تصيح : وداعاً . وداعاً رمى بها الأفق ، وداعاً ابتهل بها الرهبان . وداعاً نطق بها دخان البخور وقد صعد يتلوى في زرقته إلى الله . إنه لم يترنم في صعوده برسالة حبيب إلى السماء ، بل لقد كان يصيح وداعاً ويتلوى لرسالته من الألم ! وتخافتت الأصوات ، وسكنت الأقدام ووقف برجوليز وحيداً

مرفوع الرأس مديراً بعصاه أنغام العازفين وحركاتهم

لقد كان جديراً حقاً ذلك الحفل بأن يضع على رأسه أكاليل الغار ، ولكنه كان مأخوذاً مرعوباً لم يدر شيئاً ، ووقف يحترق فى لهبه ، لقد كان فريسة لأساه ، هشيما لنار جواه . وبكاها برجوليزى إلى العالم ولم تزل حية ، لم يبك « الأخت فكتوريا » كما نادوها فى الدير ، بل بكى الحبيبة ماريا . لقد بكاها وهى فى كهفها الضيق ولا من يسمع أناتها . إنك لتقرأ مأساتها كما قرأها من قبلك ، وكما سيطالعها إلى الأبد الكثيرون فى دمعته المحرقة فى دمعته الصارخة « Stabat Mater » ولا عجب أن كانت معجزة فلم يك أبداً فؤاد إنسان ذاك الذى لحنها ، ولكنه فؤاد من ذهب روحى خالص نقى صهرته الآلام الملتهبة

لم يتمكن الزمن أن يحدث معجزة النسيان ، ولكن لم يك غير الموت شافياً « لماريا » . فلم تمض سنة حتى تركت الأخت « فكتوريا » وراءها على الأرض صدفة مرمرية ورسالة إلى من وهبته قلبها . وحمل الرسالة إخوتها إلى « برجوليزى » فى روما ؛ فقد رحل من قبل عن « نابلى » مثوى أحلامه . أما الرسالة فكانت : « دعوا برجوليزى يدير المحفل الأخير لروحى حتى يتاح لها أن تصعد إلى عالم الخلد على أجنحة الوجد »

فترك برجوليزى ما لم يتم من تأليفه ؛ وقد كاد أن يتم أوبراه الخالدة (الأولمبياد) ورحل سريعاً إلى « نابلى » ليجد هناك طعنة جديدة تنتظره ؛ فقد كانت القطعة التى سيدير عزفها ليست له ولكنها من تلحين « ليد » الموسيقى القديم . ويحهم ! ويحهم ! لم يريدوا حتى أن يكون له شرف تأليف لحن جنازتها . لم يريدوا إلا حرمانه حتى ذلك التأسى الفانى ، ولكنه فنان عاشق ، ولكنه محب والله ، ولكنه .. لحن فى سرعة جنونية يائسة قطعة كل نغم فيها فلذة من حنايا قلبه المضنى ، من ثنايا أساه البليغ

لم ير شيئاً سوى وجوه كالحة ساخرة مجرمة . وتخافتت الأصداء ، وسكنت الأقدام ، ولكن أقدام ماريا لم تخفق معها هذه المرة ، ولم تندمج فى الصف الذى اندمجت فيه من قبل فى حفل ترهبها . وها هى ذى فوق أكتاف الراهبات يحملن منها صدفتها المرمرية الهشة . وها هى ذى وخزات الآس الدامية ينقلها « برجوليزى » إلى لغة اللحن فى أنات طويلة علوية

ولما أوصد الباب للمرة الأخيرة ، وانتهت المراسيم الحزينة ، تقدم برجوليزى وهبط عن منصته ثم جمع أوراقه التى سطر فيها أساه واحدة فواحدة ، وعدها ببطء ودقة . ولما تأكد من أنه لم يترك منها شيئاً . تقدم إلى المذبح . ويحه ماذا يريد ؟ وعلى أحد الشموع الكبيرة التى قدمت حياتها قرباناً لتضىء ساحة بيت الله ، ألهبت ناراً فى عصارة قلبه ، فى هديته الأخيرة لماريا ملهمته ، ولما اسودت الأوراق ، وتلوت ثم تراقصت فى ألم على الأرض ، صاح فى أسى وحرقة :

لقد لحنتها لماريا ! لماريا وحدها . إنها لحنى الأخير لموكبها . إنها سلامى الأخير لها ، ووداعى الأخير لروحها . ولن تكون إلا لها . دائماً أبداً لن تكون

* * *

ولم يعلم أحد هل كانت هذه البقايا المحترقة هى معجزة برجوليزى التى جمعها الراعى فى الصباح

لم يعلم أحد هل كانت هذه البقايا المرتعشة فى مهب الريح هى « النغم الضائع » أو الوتر المنزوع من قيثارة « جيامباتستا »

ولم تنتظر ماريا طويلاً . فلم تمض سنة حتى كان جيامباتستا برجوليزى فى قرية پوزيولى ، قريباً من نابلى ، وقد امتنع عن العزف ، وامتنع عن الشكوى والنواح

وارتفع إلى السماء ليعزف لها هناك على قيثارة الروح الأناشيد التى وضعها لها على الأرض

حسين محمود البشبيشى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)